القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق
ومكانته العلمية

الدكتور نصر سلمان

جامعة الأمير عبد القادر

تمهيد:

هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي، المكنى بأبي عبد الرحمن، وأبي محمد، ولد في خلافة عثمان بن عفان، وقيل في خلافة علي بن أبي طالب –رضي الله عنهما–[1] فقد أباه وهو غلام يافع، فتكلفت به عمته عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – هذا فضلا عن لقياه لجموع من الصحابة الذين ارتشفوا زلال علم رسول الله ﷺ، فنهل من معين علمهم الصافي حديثا، وفقها، وتفسيرا حدا به لأن يكون أحد فقهاء المدينة السبعة، الذين يفزع إليهم إذا نزلت معضلة أو أشكلت على المسلمين مسألة في أمور دينهم .

وها هو القاسم نفسه يحدثنا عن بعض جوانب طلبه للعلم فيقول: "استقلت عائشة بالفتوى خلافة أبي بكر وعمر، وعثمان، إلى أن ماتت وكنت ملازما لها وكنت أجللس البحر ابن عباس، وجلست مع ابن عمر وأبي هريرة فأكثرت، وكان هناك –يعني مع ابن عمر – علم جم وورع ووقوف عما لا يعلم"[2].

وللتعرف عن قرب على هذه الشخصية الفذة التي كان لها الفضل في نشر علم الشريعة بوجه عام وفقه الصحابة واجتهاداتهم بوجه خاص، وفقه عائشة أم المؤمنين

1- سير أعلام النبلاء 54/5، وتاريخ الإسلام 217/7

2-تهذيب الأسماء واللغات 55/2، وتهذيب الكمال 431/23، وسير أعلام النبلاء 55/5 .

رضي الله عنها بوجه أخص نحاول التطرق لأبرز المحطات المتعلقة بسيرته الذاتية والعلمية من خلال النقاط الآتية

أولا: باقة من أقوال العلماء فيه :

لقد أثنى العلماء على القاسم بن محمد – رحمه الله – مبرزين سماته العلمية، والخلقية، منوهين بحفظه وإتقانه، هذا فضلا عن أدبه الجم،و علمه الغزير بسنة رسول الله ﷺ وهذه باقة من أقوالهم الشاهدة على مكانته الاجتماعية والعلمية . **قال أيوب السختياني:** ما رأيت أفضل منه[1] لقد ترك مائة ألف حديث وهي له حلال[2] .

وقال يحي بن سعيد: "ما أدركنا أحدا نفضله بالمدينة على القاسم "[3]. **وقال أبو الزناد:** "ما رأيت فقيها أعلم بالسنة منه، وما كان الرجل يعد رجلا حتى يعرف السنة"[4]. **وقال فيه ابن عيينة:** "كان القاسم أفضل أهل زمانه"[5]. **وقال فيه الإمام الذهبي:** "الإمام القدوة ...الفقيه"[6]. **وقال مالك:** "كان القاسم من فقهاء هذه الأمة"[7]. **وقال ابن حبان** :"من سادات التابعين، ومن أفضل أهل زمانه علما، وأدبا، وعقلا، وفقها، وكان صموتا لا يتكلم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز، قال أهل المدينة : "اليوم تنطق العذراء في خدرها – أراد القاسم بن محمد"[8].

1-تقريب التهذيب 23/2
2-تذكرة الحفاظ 96/1-97
3-العبر 100/1 وتذكرة الحفاظ 97/96/1 وطبقات الحفاظ 45، ووفيات الأعيان 533/4، وتهذيب الأسماء واللغات55/2، والجرح والتعديل 118/8، وتهذيب التهذيب 300/7، وسير أعلام النبلاء55/5.
4-حلية الأولياء 184/2 والتاريخ الكبير 157/7 وسير أعلام النبلاء 56/5 وطبقات الحفاظ 45.
5-العبر 100/1-101، وتذكرة الحفاظ 96/1-97، وتهذيب الأسماء واللغات 55/2 والتاريخ الكبير 157/7 والجرح والتعديل 118/8.
6-تذكرة الحفاظ96/1
7-وفيات الأعيان 533/4 وتهذيب التهذيب 300/7، وسير أعلام النبلاء 56/5-57.
8-الثقات302/5

ثانيا: لمح من شمائله وخصاله:

إن الدارس لسيرته العطرة، والسابر لأغوار حياته –رحمه الله– يجده مثـــالا يحتـــذى وأنموذجا يُقتدى به، فهو مثل أعلى في إنكار الذات، مع السماحة في غير هوان، والشدة على أهل البدع والباطل، والحرص الشديد على تحرِّي المكسب الحلال، وسنحاول إبـراز هذه المعاني السامية التي حفلت بها حياته العظيمة من خلال النقاط الآتية:

أولا: عدم تزكيته لنفسه: وهذا ما يوضحه ما قاله محمد بن إسحاق: "جاء أعــرابي إلى القاسم بن محمد فقال، أنت أعلم أم سالم ؟، فقال: ذاك مبارك سالم، وعنـــد ابـــن حجر: ذاك سالم فاسأله، وفي السير: سبحان الله، كلّ سيخبرك بما علم، فقـــال أيكمـــا أعلم؟ قال: سبحان الله، فأعاد، فقال: ذاك سالم انطلق فسله، فقام عنه .

قال ابن اسحاق: "كره أن يقول هو أعلم مني فيكذب، أو يقول: أنا أعلـــم منـــه، فيزكي نفسه، وكان القاسم أعلمهما "[1]

ثانيا:رده للعطايا والصلات: ومن ذلك ما رواه حميد الطويل عن سليمان بن قتـــة قال: أرسلني عمر بن عبيد الله التيمي إلى القاسم بخمس مائة دينار، فأبى أن يقبلها[2]

ثالثا: زهده في الإمارة: وهذا ما توضحه رواية محمد بن الضحاك الحزامي عن أبيـــه قال: قال عمر بن عبد العزيز لو كان إلي أن أعهد ما عدوت صاحب الأعوص، يعـــني إسماعيل بن أمية، أو أعيمش بني تميم – يعني القاسم –، فروى الواقدي عن أفلـــح بـــن حميد أنها بلغت القاسم، فقال: "إني لأضعف عن أهلي فكيف بأمر الأمة"[3].

1-وفيات الأعيان 533/4، وتهذيب التهذيب 300/7 وسير أعلام النبلاء 56/5 وحلية الأوليـاء 184/2، وتهذيب الكمال432/23–433
2-سير أعلام النبلاء 59/5 وتاريخ الإسلام 220/7
3-سير أعلام النبلاء 59/5 وراجع تهذيب التهذيب 300/7 وتذكرة الحفاظ 96/1–97 والعـبر 100/1–101 وتاريخ الإسلام 219/7–220

قال الذهبي معلقا على مقولة عمر بن عبد العزيز: "لأن سليمان بن عبد الملك عـــهد إلى عمر بالخلافة، وليزيد من بعده"[1].

رابعا: سماحته في الخصومه: قال مالك: وكان يكون بينه وبين الرجـــل المـــداراة في الشيء، فيقول له القاسم "هذا الذي تريد أن تخاصمني فيه هو لك، فإن كان حقا، فـهو لك، فخذه ولا تحمدني فيه، وإن كان لي، فأنت منه في حل وهو لك.[2]

خامسا: سماحته مع مرتادي مجلسه: قال يحيى بن سعيد: "كان القاسم لا يكاد يـــرد على أحد في مجلسه، ولم يعب عليه، فتكلم يوما ربيعة في مجلس القاسم فأكثر، فلمـــا انصرف الناس، وهو متوكئ علي، التفت إليّ فقال: "إن الناس كانوا غافلين عما يقـــول صاحبنا[3] يعني عما يقول ربيعة برأيه[4]

سادسا: شدته على أهل البدع والأهواء وسخريته منــــهم: قـــال عكرمـــة بـــن عمار:"سمعت القاسم وسالما يلعنان القدرية [5] وعن أبي الزناد قال: "ما رأيت أحدا أحـدّ ذهنا من القاسم إن كان ليضحك من أصحاب الشبه كما يضحك الفتى"[6]

سابعا: تحريه المكسب الحلال: ويوضح ذلك ما روي عن أيوب لما ذكر عنده القاسم قال: "ما رأيت رجلا أفضل منه، ولقد ترك مائة ألف، وهي له حلال"[7]

1-تذكرة الحفاظ 96/1-97 والعبر 100/1-101
2-تهذيب الكمال 434/23 وسير أعلام النبلاء 57/5.
3-التاريخ الكبير 157/7.
4-سير أعلام النبلاء 59/5.وتاريخ الإسلام 220/7
5-تاريخ الإسلام 220/7.
6-المصدر نفسه، وتهذيب الكمال 432/23.
7-سير أعلام النبلاء 55/5 وتاريخ الإسلام 218/7. وتهذيب الكمال 431/23

ثالثا: من روائع أقواله

لقد أثر عن القاسم بن محمد كلمات مضيئة، تستحق أن تكتب بماء الذهب، لما لها من دلالات في واقع الناس المعيش منها قوله: "قد جعل الله في الصديق البار المقبل عوضا عن ذي الرحم العاق المدبر"[1]

والمتأمل لواقع الناس اليوم يجد هذه المقولة مجسدة بحذافيرها في حياة بعض الناس، فقد تجد في الصديق البار عوضا عن بعض أقربائك العاقين المدبرين الذين ينطبق عليهم قوله تعالى:**﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾**[2]

رابعا: مكانته الحديثية

المتفحص لآراء علماء علوم الدراية، في الحكم على الأسانيد يجدهم يصنفون روايته عن أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها – ضمن السلاسل الذهبية، التي بمجرد وجودها في حديث مرفوع أو أثر موقوف يكون ذلك كافيا للدلالة على صحته وقبوله والعمل به.

ورغم هذه المكانة الحديثية السامقة التي بلغها، نجده يقلل من التحديث ويمتنع عن الإملاء توقيرا منه لأحاديث رسول الله ﷺ من أن يقع خطأ منه في روايتها، رغم شدة حفظه وسيلان ذهنه، وشهادة أهل الحديث له بالحفظ والضبط والإتقان، وسنحاول إبراز شذرات من أقوال جهابذة العلماء فيه للدلالة على مترلته الحديثية، وذلك خلال النقاط الآتية:

أولا: شدة حفظه: قال ابن عون: "كان القاسم وابن سيرين ورجاء بن حيوة يحدثون بالحديث على حروفه[3]، وكان الحسن وإبراهيم والشعبي يحدثون بالمعاني[4]

1-تهذيب الكمال 434/23
2-سورة محمد الآية 22.
3-تهذيب التهذيب 300/7
4-سير أعلام النبلاء 56/5، وتهذيب الكمال 432/23

ثانيا: علمه بمرويات أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–: قال ابن عيينة: "كان أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة: القاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن"[1].

ثالثا: التقليل من التحديث: قال ابن المديني له مائتا حديث [2]وقال مالك : "ما حدث القاسم مائة حديث"[3] وقال أيضا "كان قليل الحديث والفتيا"[4]

رابعا: مواطن وجود حديثه: قال أبو نعيم : "وعامة مسانيده في المناسك والأحكام"[5]

خامسا: امتناعه عن الإملاء لمن يكتب الحديث: قال عبد الله بن العلاء : سألت القاسم أن يملي علي أحاديث، فمنعني، وقال: إن الأحاديث كثرت على عهد عمر، فناشد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها، ثم قال مثناة[6].

سادسا: موازنة العلماء بين حديثه وحديث سالم بن عبد الله بن عمر: قال ابن معين: "القاسم وسالم حديثهما قريب من السواء"[7]

سابعا: وصف البخاري له في صحيحه بكونه أفضل أهل زمانه: قال البخاري: حدثنا علي حدثنا سفيان حدثنا عبد الرحمن بن القاسم وكان أفضل أهل زمانه أنه سمع أباه وكان أفضل أهل زمانه يقول: سمعت عائشة تقول: "طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أحرم، ولحله حين أحل قبل أن يطوف، وبسطت يديها"[8]

1-الجرح والتعديل 118/8، وتهذيب الأسماء واللغات 55/2، وتهذيب التهذيب 300/7 وسير أعلام النبلاء 56/5.
2-سير أعلام النبلاء 54/5
3-تاريخ الإسلام 219/7
4-تهذيب التهذيب 300/7.
5-حلية الأولياء 185/2
6-والمثناة كتاب وضعه أحبار بني إسرائيل بعد موسى فيما بينهم على ما أرادوا من غير كتاب، سير أعلام النبلاء 59/2
7-الجرح والتعديل 118/8.
8-البخاري كتاب الحج باب: الطيب بعد رمي الجمار، والحلق قبل الإفاضة 466/3.

ثامنا: حكم الذهبي على حديثه: قال الذهبي: "وحديثه أعلى شيء عند مسلم فإنه روى في صحيحه بمن القعنبي عن أفلح عنه أحاديث[1].

ويكفي القاسم مكانة ومنزلة أن أحاديثه مخرجة في صحيح الإمام مسلم الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد صحيح الإمام البخاري .

تاسعا: نماذج لمروياته التي انفرد بها وأغرب فيها:

1-**قال أبو نعيم:** حدثنا سليمان بن أحمد قال ثنا إسحاق بن إبراهيم قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن أيوب عن القاسم بن محمد عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا رأى الغيث قال «اللهم صيبا هينا» رواه نافع مولى ابن عمر عن القاسم نحوه [2]

2-وقال أيضا حدثنا أبو بكر بن خلاد قال ثنا الحارث بن أسامة قال ثنا عبد الوهاب بن عطاء قال ثنا عباد بن منصور عن القاسم بن محمد عن عائشة -رضي الله عنها - عن النبي ﷺ قال «إن الله تعالى يربي لأحدكم اللقمة كما يربي أحدكم فصيله حتى يجعلها له مثل جبل أحد»[3].

3-**وقال أيضا:** حدثنا عبد الله بن محمد قال ثنا ابن عفير الأنصاري قال: ثنا شعيب بن سلمة قال ثنا عصمة بن محمد قال ثنا موسى -يعني ابن عقبة - عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ :"ما من عبد يكف بصره عن محاسن امرأة ولو شاء أن ينظر إليها نظر إلا أدخل الله تعالى قلبه عبادة يجد حلاوتها"[4]

1-تاريخ الإسلام 218/7.
2-حلية الأولياء 186/2.
3-حلية الأولياء 186/2
4-المصدر نفسه 187/2

خامسا: مكانته بين نظرائه وأقرانه:

إن نظرة متأنية في سيرة القاسم بن محمد –رحمه الله – تنبئ عن المكانة السامقة الــتي بلغها في زمانه، إذ عد أحد السبعة الذين يرجع إلى قولهم، ويقتدى بصنيعــــهم، وتتبــع آثارهم، ويهتدى بدلِّهم وسمتهم، وهذه بعض الشواهد الكاشفة عن مكانته في مجتمعــــه الذي كان يحياه تبرزها النقاط الآتية:

أولا: شهادة أهل العلم له بالأهلية: ومما يؤيد ذلك ما قال أبو الزناد: سبعة من أهل المدينة نظراء إذا اختلفوا أخذ بقول أحدهم: سعيد بن المسيب، وعروة، والقاسم، وأبــو بكر بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عبد الله، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار"[1]

ثانيا: اقتداء العلماء بصنيعه: ويوضح ذلك ما رواه مالك من أن ابن سيرين كان قد ثقل،وتخلف عن الحج، فكان يأمر من يحج أن ينظر إلى هدي القاسم، ولبوسه، وناحيتــه فيبلغونه ذلك، فيقتدي بالقاسم[2].

ثالثا: جلوسه للتدريس: فعن ابن أبي الموال قال: "رأيت القاسم يأتي المســــجد أول النهار فيصلي ركعتين، ثم يجلس بين الناس، فيسألونه"[3]

وقد اتخذ –رحمه الله تعالى –من الروضة الشريفة أي بين القبر والمنبر مكانا للتدريــس هذا المكان الذي كان يجلس فيه القاسم، وسالم، وبعدهما عبد الرحمن بن القاسم، وعبيــد الله بن عمر، ثم جلس فيه بعدهما مالك بن أنس.[4]

سادسا: منهجه في الفتوى:

"لا شك أن الفتوى منصب عظيم الأثر، بعيد الخطر، إذ المفتي قائم مقام النبي ﷺ فــهو نائب عنه في تبليغ الأحكام، وتعليم الأنام، وإنذارهم بها لعلهم يحذرون، وهو إلى جانب

1-تاريخ الإسلام 218/7-219
2-سير أعلام النبلاء 57/5 وتهذيب الكمال 433/23.
3-تاريخ الإسلام 221/7.
4-الطبقات الكبرى 188/5.

تبليغه عن صاحب الشريعة قائم مقامه في إنشاء الأحكام في المستنبط منها بحسب نظره واجتهاده، كما اعتبره الإمام ابن القيم موقعا عن رب العالمين، هذا وقد عرف السلف للفتوى كريم مقامها، وعظيم منزلتها، وأثرها، في دين الله وحياة الناس، فكانوا يتهيبون من إصدارها، ويتريثون في أمرها، ويعظمون من قال: "لا أدري" وقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم– مع ما رزقهم الله به من علم غزير، ونفاذ للبصيرة، وشرف للصحبة، كثيرا ما يتوقفون عن الفتوى، ولا يجيبون، بل إن الواحد منهم كان إذا سئل تكلم وإنه ليرعد"[1]

وعلى هذا النهج القويم، الذي اختطه الصحابة لأنفسهم في تعاملهم مع الفتوى، وتهيبهم منها سار القاسم بن محمد –رحمه الله– على نفس الطريق التي سلكها مشايخه الذين ارتوى من عباب علمهم الجم، وتشرب من رضاب أخلاقهم الصافية إذ كان شعارهم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار" ولذا نجده اختط لنفسه منهجا للفتوى يقوم على النقاط الآتية :

أولا: التقليل من الفتوى: قال مالك: "وكان القاسم قليل الحديث والفتيا"[2]

ثانيا: العزوف عن الإجابة فيما لا يعلم: قال يحيى بن سعيد: سمعت القاسم بن محمد يقول: لأن يعيش الرجل جاهلا بعد أن يعرف حق الله عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم[3] وعن مالك قال "أتى القاسم أمير من أمراء المدينة، فسأله عن شيء، فقال: "إن من إكرام المرء نفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه"[4]. وعن أيوب قال: "سمعت القاسم

1-القرضاوي، الفتوى بين الماضي والحاضر، 25-28.
2-تهذيب التهذيب300/7 وسير أعلام النبلاء 57/5
3-سير أعلام النبلاء 57/5 وتهذيب الكمال 433/23.
4-المصدران السابقان .

يسأل بمنى، فيقول: لا أدري، ولا أعلم، فلما أكثروا عليه قال والله ما نعلم كل ما تسألون عنه، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا حل لنا أن نكتمكم"[1]

ثالثا: تردده في الفتاوى التي لم يصل فيها إلى الجزم برأي أو حكم: ومن ذلك ما نقله ابن عون حيث قال :"إن القاسم قال في شيء أرى، ولا أقول إنه الحق"[2]

رابعا: ابتعاده عن الفتوى في الأشياء الغامضة: قال أبو الزناد : "ما كان القاسم يجيب إلا في الشيء الظاهر"[3].

سابعا: وفاته:

بعد هذه الحياة العلمية الحافلة بالنهل من معين العلم الصافي طلبا، ونشرا وتدريسا، وإفتاء، تفيض روحه الطاهرة إلى بارئها، وذلك سنة 106هـ على الصحيح [4]من الأقوال التي تضاربت حتى بلغت عشرة كاملة، وهذا بمكان يقال له قديد [5]، ودفن بالمشلل[6]وبين المشلل والقديد ثلاثة أميال[7]. وكان رحمه الله تعالى آخر كلامه عند موته :"أنت ربي وحسبي وسيدي"[8].ومن آخر وصاياه ما نقله رجاء بن أبي سلمة قال: مات القاسم بن محمد بين مكة والمدينة حاجا، أو معتمرا، فقال لابنه: "سن علي التراب سنا، وسو علي قبري، والحق بأهلك، وإياك أن تقول كان وكان"[9]. وكذا ما نقله خالد بن أبي بكر

1-حلية الأولياء 184/2
2-تاريخ الإسلام 220/7
3-تهذيب الكمال 434/23 وسير أعلام النبلاء 57/5.
4-التاريخ الكبير 157/7 وتقريب التهذيب 23/2.
5-بضم القاف وفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها دال مهملة: وهو منزل بين مكة والمدينة -وفيات الأعيان 533/4 والثقات 302/5
6-هو عبارة عن جبل ينزل منه إلى قديد من جهة البحر، معجم البلدان 136/5.
7-تاريخ الإسلام 222/7.
8-تهذيب الأسماء واللغات 55/2.
9-حلية الأولياء 184/2.

قال: أوصى القاسم أن لا يبنى على قبره[1]. ومن وصاياه أيضا أنه قال: "كفنوني في ثيـلبي التي كنت أصلي فيها، قميصي وإزاري وردائي، فقال ابنه: يا أبت ألا تزيد ثوبين، فقـال هكذا كفن أبو بكر في ثلاثة أثواب، والحي أحوج إلى الجديد من الميت[2].

وفي الختام نقول: وهكذا يموت العظماء، فيندثر منهم العنصر الترابي، ولكن أعمـالهم تبقى خالدة خلود التاريخ، ينهل منها الأحفاد تلو الأحفاد معترفين في ذلـــك بقصـــب السبق، ورسوخ القدم،وعلو الكعب للآباء والأجداد داعين لهم بواسع الرحمـــة ووابـــل الغفران.

1-تاريخ الإسلام 222/7
2-وفيات الأعيان 533/4.